مسلسل الإجرام للجميع

وأخيرًا.. وجدت القرية ضالتها، بعد تقاعس العمدة وشيخ الخفر عن كشف غموض الجريمة التى حدثت أثناء صلاة الجمعة مع تواجد الجيران داخل كنيستهم بالبلدة، بحجة أنهم ينتظرون المفتش العام، وجلس ثلاثتهم، أحدهم يتبصص والثانى يتلصص والآخر يشكو الجوع والحرمان، بعد حظر البضائع عن البلدة الصغيرة، تحسبا لدخول وجوهًا جديدة تكمل مسلسل الإجرام للجميع.

غالبًا ما تكون البداية أصوات إطلاق رصاص ناحية الكنيسة العتيقة، ثم يليها نحيب وعويل، والمتهم في الغالب محمد ابن حسن الكلاف، الذى عمل فى السعودية لقرابة ثلاثين عامًا، حيث رُزق بمعظم الأبناء ورغم تلقيهم العلم على أيدي أساتذة مصريين، إلا أن التطرف كان السمة الغالبة للجميع حتى النساء منهم.

ذهب محمد الكلاف بعد تخرجه ليساعد المجاهدين الأفغان في حربهم ضد الروس، وترك جميع افراد أسرته بأرض الحرمين الشريفين.

وأصيب ذات مرة فى إحدى الهجمات، وفقد ساعده حتى منتصف الذراع، ووعده القاده كثيرًا أن يعوضوه بجهاز ومبلغ ضخم، وإنهاء خدمته، حيث انحسر القتال بسيطرة حركة طالبان على مجمل الأراضى والمرتفعات في تورا بورا.

بعد انقسام الحركة على زعيم الجهاديين أسامة بن لادن، وأصبح من المحتم تسريح المصابين -فقد يمثلون إعاقة لباقي القوات- قرر أن يرحل بزوجته الدانماركية من أصل جزائري، والتي كانت قد تطوعت للجهاد ضمن القاعدة في أفغانستان من جراء الحقد الدفين على الحضارة الغربية وفشل محاولات الإنجاب من أصدقاء لها قبل السفر، وبعد أن أعلنت توبتها حسب زعم الإمام؛ تزوجت من الكلاف طمعًا فى جنة الدنيا ونعيم الآخرة، رغم أن عملها كان مقصورًا على المساعدة والتطبيب، إلا أنها كانت تتمتع بحصانة غريبة من بعض الرجال.

وفور وصولهما إلى مطار كوبنهاجن العاصمة، تعرضا إلى سيل من الأسئلة والاستجوابات داخل الغرف المظلمة، إلا أن السلطات أفرجت عنهم لعدم ثبوت أى أدلة بالضلوع في عمليات إرهابية.

مر شهرٌ كاملٌ دون أى حراك، ولا نية سوى التفرغ للحياة بالتجارة أو العمل والدراسة عن غير قناعة بسبب عدم أداء المهمة على الوجه الأكمل، وذات مساء تلقي الكلاف عبر إحدى شبكات التواصل رسالة مفادها (أن أمامه فرصة كبيرة لتعويض هذا الاخفاق الذى حظي به هو وزوجته، مع شرح كامل للتفاصيل، وأماكن تسلم الأحزمة الناسفة، ومبالغ نقدية للاحتفاظ ببعضها، وإرسال المتبقي للأهل بمصر والجزائر) ومنذ ذلك الحين تسربت الحيرة والتشتت مرة أخرى إلى قلوبهم ما بين موافقة ومعارضة لبداية حياة جديدة، وعند تلك المرحلة تذكر وصية الأمير في تورا بورا، فحزم أمره واستلم الخريطة والمتفجرات والنقود من شاب اتضح من هيئته أنه مصري الجنسية.

صباح يوم التفجير.. وبعد أن مارسا علاقتهما الزوجية المعتادة، استعدا للذهاب لمكان العملية، وقتها سمع ضجيجًا شديدًا بالخارج، وبعد أن تأكدا أنها شرطة مكافحة الإرهاب، دبَّ الذعر فى قلبه وقلب زوجته، وفرا هاربين من باب خلفي متصل ببدروم أسفل المبنى، وأفلت الرجل بأعجوبة، إلا أن الزوجة أصيبت برصاصة في الرأس أودت بحياتها، ولم يتمكن من إسدال طقوس الوداع لخليلته، لضيق الوقت وخطورة الأمر.

وما أن هدأ روعه واطمأنت نفسه جلس يحدثها:

كيف تستقيم الأمور على هذا النحو؟

هل سأعيش مطاردًا باقي الحياة في بلاد غريبة لا نعرفها ولا تعرفنا؟

لابد.. لابد من الرحيل حتى إلى مصر مهما كلفتنى العودة من متاعب مع الأمن والأهل والأصدقاء، وتمكن منه شعور الحنين.

ذهب إلى أحد ضواحي كوبنهاجن لسمسار تهريب للاتفاق حسبما قرر، وفي الطريق واجهته مصاعب عدة، إلا أنه كان يفلت وينأى بنفسه عن أماكن التوتر والقلق والتفتيش.. وقت أن كانت معظم أوروبا.. بل العالم مرتعًا خصبًا لعمليات الذئاب المنفردة للإرهاب الدولى.

وصل لهدفه أخيرًا، وتم الاتفاق ودفع مبلغًا طائلًا مما لديه من أرصدة نقدية بحقيبته الصغيرة المثبتة على خصره كما الحزام الناسف، بعد أن تخلص منه وقت الهروب.. وبعد مرور أيام مقيمًا لدى الرجل في

مخبأه، استلم جواز سفر مصري جديدًا باسم مستعار، وكان ضمن الاتفاق أن يتم مساعدته إلى الوصول لأقرب مطار.

صعد الطائرة بأنفاس متقطعة وصوت متحشرج طالبًا للمياه قبل أن تقلع، وأثناء الطيران تذكر أبيه وقريته التى أوصى بها، ومنزلهم وقريبهم الذى يؤجر أرضهم، وترتيبات لم تكن متوقعة، الأهم أن يصل لمصر.

في مطار القاهرة تعرض أيضا لخيبات وويلات من تحقيقات وإهدار لإنسانيته، ولِمَ لا! فهو فى الأخير إنسانٌ.. له كافة الحقوق في بلاده، رغم أنه وُلد بالمدينة المنورة،

قد يكون لهم العذر فى ذلك، ربما جواز السفر مزور، وغيرها من الأسئلة للاشتباه، فنحن في عصر الإرهاب الجميل، ضحك من قلبه دون صوت بعد أن تذكر إحدى المسلسلات المصرية التى أطلقت هذا التعبير، وفى الأخير تحمل أيامًا أخرى حتى تركوه بعد تحذير شديد اللهجة من العودة لأفغانستان، إذ كانت أجهزة الأمن المصرية على علم بكل تحركاته، منذ أن غادر السعودية عبر أجهزتها الاستخباراتية القوية، استقبلة أحد الأقرباء بالقرية وحزن كثيرا لقطع ذراعه وسأل عن والده والعائلة، وأبلغه أن والده كان يسأل ليطمئن هل عاد لمصر أم لا؟

قرر أن يعود للصلاة في المسجد القريب، محاولًا نسيان ما حظي به من أهوال، وبعد الصلاة إذ بشخص ملتحي يسلم عليه بحرارة قائلا: حمدا لله على سلامتك يا كلاف، الرجال هناك يرسلون لك ألف تحية ويتعجبون كيف عدت إلى هنا!

وهمس فى أذنه ليتقابلا مساءً في منطقة بعيدة وأردفه قائلا: مازلت مطلوبًا في النعيم يا محمد، كانت القرية وقتها تشتعل بأحوال الفتنة الطائفية، ولم تستطع الأجهزة المحلية السيطرة على الأمر بسبب صلاة بعض الأقباط في منزل كبير لأحدهم، لعدم وجود كنيسة هناك.

لقد رتبنا لك الأمر يا كلاف، لا تقلق.. بعد إتمام العملية سوف نأخذك لمكان آمن في بطن الجبل، على أطراف القرى المجاورة، حتى يهدأ الأمر وتعود للقاهرة ومنها إلى السعودية حسب الترتيب.

ركب محمد الدراجة البخارية خلف آخر، وبسرعة رهيبة مرا أمام ذلك المنزل المقصود مصوبًا رشاشه على الجميع، مسلمين وأقباط ممن تواجدوا أثناء وبعد الصلاة، وفرا هاربَين والبكاء والعويل لم ينقطع عن الأسماع.

وفجأة اعوجت الدراجة جهة اليسار، ثم انسحبت على الأرض حتى توقفت.

فقد كذبوه إخوته في الجهاد وغدروا به، وصوب السائق نحوه مسدسًا وبدأ بإطلاق النار على رأسه قائلا: مازلت مطلوبًا في النعيم يا أخ كلاف.. أستودعكم الله.

وأخيرًا.. وجدت القرية ضالتها بعد تقاعس العمدة وشيخ الخفر عن كشف غموض الجريمة التي حدثت أثناء صلاة الجمعة مع تواجد الجيران داخل كنيستهم بالبلدة، بحجة أنهم ينتظرون المفتش العام، وجلس ثلاثتهمن أحدهم يتبصص والثانى يتلصص والآخر يشكو الجوع

والحرمان، بعد حظر البضائع عن البلدة الصغيرة، تحسبًا لدخول وجوهًا جديدة تكمل مسلسل الإجرام للجميع .

بقلم / أ/ أحمد فتحي رزق